

تأثير المقهى فى أدب

نجيب محفوظ

نجد المقهى يلعب دوراً كبيراً في روايات محفوظ الذي يقول :
«كان جلوسي في الفيشاوي يوحى لي بالتفكير» .. وكل نفس شيشة يطلع
بمنظر .. كان خيالي يصبح نشيطاً جداً في أثناء تدخين الشيشة .. عرفت
المقهى في سن مبكرة منذ دراستي الثانوية .. ومعى أحد أصدقائي .. وكان
لنا مقهى في كل «حقة».

أرصفة نجيب محفوظ :

لقد كان محفوظ من أكثر ادباء العالم الذين امضوا وقتاً طويلاً من
أعمارهم جالسين إلى الرصيف، يتأملون ويلاحظون ويرصدون.

ليس مثل الرصيف مكاناً للتأمل، الشارع بكل درجاته، ربما كان أو
زقاقاً أو حارة أو طريقاً ما هو إلا ممر للبشر، والانسان محب للنظر، للتأمل
بطبعه، في المدينة حيث الرصيف يمثل الحد، الإطار، يجلس البعض فوقه
مباشرة لالتقاط الانفاس، للراحة، للتأمل. لتمضية الوقت، والرصيف الإطار
المحيط بمسجد وضريح مولانا الحسين، رصيف خاص، يجلس فوق
ال دراويش والمريدون، يتسامح معهم المجتمع. فيمكن للواحد منهم ان يتمدد
نائماً فلا يزعجه أحد، ويمكن لامرأة تقيم في احد الأزقة القريبة ان تخرج
عند العصاري لتشم الهواء تجلس فوق الرصيف محتمية بالمسجد، تتحدث
إلى غريبة مثلها، أو تفرج عن نفسها ثم تعود من حيث أتت، لعل رصيف

الضريح والمشهد الحسيني أول ما عرفه نجيب محفوظ عند بدء ارتياده للعالم انطلاقاً من منزله الأول بدرب قرمز. في الدروب والأزقة لا توجد أرصفة، نهر الطريق متداخل مع حدود البيت.

الرصيف يؤطر حركة السائرين حتى لا يتداخلوا مع العربات والدواب، في الشوارع الرئيسية بالقاهرة القديمة توجد أرصفة ضيقة ومع ظهور المركبات الآلية زاد العرض حتى يتوافر للمشاة مكان للسير، هكذا الأصل في الرصيف كما تعرفه المدينة الحديثة والقديمة، البيوت الكبرى، القصور، المساجد لابد أن يحيطها إطار، مرئي محسوس مثل الرصيف، أو غير مرئي وهذا ما ينظمه العرف المتبع، فلا يمكن لشخص أن يتبول بجوار مسجد أو يربط دابته عند أو قرب بابه.

نجيب محفوظ أفندي، والافندية لا يمكنهم الجلوس مباشرة إلى الرصيف، لذلك وجدوا الحل في المقاهي المطلة على الميادين والشوارع، المقهى يسمح للإنسان بالجلوس في مناطق لا يعرفه فيها أحد، وأمام المقهى يمتد الرصيف، تتقلص مساحته نهارة لزيادة الحركة في نهر الطريق، وتمتد ليلاً مع خلو الشارع نسبياً في جميع الأحوال يمكن للأفندي أن يجلس فوق الرصيف أمام المقهى ويتأمل، يتابع.

من الأرصفة التي أمضي نجيب محفوظ أوقاتاً طويلة إليها، أرصفة مقاهي الجمالية، خاصة مقهى الفيشاوي الذي كان رصيفه ضيق المساحة بالنسبة إلى عمقه الداخلي، هكذا كان المقهى الذي هدم في عام تسعة وستين من القرن الماضي، كان المدخل يشبه باب بيت كبير، أمامه دكة

يجلس فوقها الحاج فهمي الفيشاوي بعد أن تقاعد وتخلي عن الفتونة وأصبح يدير المقهي من مقعده هذا. يدخل النرجيلة ويطعم جواده الاصيل بيده، وخلفه يمتد المقهي، هنا يصبح للرصيف الخارجي امتداد داخلي، خاصة ان مقهي الفيشاوي القديم كان فريد التكوين، ممر طويل تتخلله نوافير المياه وعلي الجانبين حجرات صغيرة سدل عليها ستائر من الخرز وقد اختفي هذا النوع من الستائر الذي كان يغطي أيضا دكاكين الحلاقين، وجود الممر الطويل يمكن اعتباره رصيفا داخليا يمتد أمام الحجرات.

إلي أحد المقاعد في هذا الممر كان يجلس نجيب محفوظ. وحيدا في الصباح، خاصة خلال الفترة التي نقلوه فيها إلى قبة الغوري مغضوبا عليه بعد استقالة حكومة الوفد، كان يختلس وقتا ليس بالقصير ليجلس في الفيشاوي بمفرده يؤنسہ تدخين النرجيلة ويفكر في الشخصيات التي يعايشها والروايات التي يكتبها.

وقد كانت علاقته بالشيشة ان كل نفس كان يخرج بمنظر من رواية شرع فيها، انها صديق صافي يؤنس جلوسه وقتا طويلا، اضطر إلى التوقف عن تدخينها لانها بدأت تتحول إلى عادة معطلة، خاصة عندما انتقل للسكني في العباسية، وأصبح يتردد مرات نهارا وليلا علي المقهي لتدخينها، خاصة في الليل، النرجيلة صديق التأمل علي الرصيف، في ميدان الحسين عدة مقاهي، ارسفتها محاذية للميدان مباشرة، منها مقهي افندية الذي مازال يحمل نفس الاسم، ومقهي المجاذيب، كان يتأمل المارة اثناء جلوسه، ومن يقعد امام تلك المقاهي حتي اليوم يمكنه أن يلح الاصول الانسانية لشخصيات نجيب محفوظ، كما ان قراءة رواياته تساعد علي رؤية

الخصوصية الانسانية التي يضيفها المكان. من الارصفة التي لزمها ايضا رصيف ضيق جدا لمقهي ما تزال توجد بقاياها في سوق الحمزاوي، وهذا سوق ضيق متخصص في الأعشاب والعطور، مزدحم، وبه أحد أقدم المحلات المتخصصة في المنسوجات اليدوية والملابس الشعبية، محل 'عوف' الذي كان موضوع أحد البرامج الاذاعية الموسيقية الشهيرة نهاية الاربعينات.

في خضم الزحام يجد الانسان مقهي صغيرا تظله تكعيبه عنب ماتزال بقاياها ماثلة حتي الآن، مازال عم محمد النوبي أقدم متخصص في العطور يذكر نجيب محفوظ، وجلسته بالمقهي وحيدا، طول صمته وتأمله، ويؤكد عم محمد أنه كان محبا للشاي الأخضر بالنعناع الذي يتقنه رجل أصله مغربي.

من الأرصفة التي لعبت دورا في حياتنا الثقافية، رصيف مقهي ريش طوال الخمسينات وبالتحديد في الستينات عندما بدأ نجيب محفوظ ندوته الاسبوعية في مقهي ريش، كان رصيف المقهي متباعدا علي شارع سليمان باشا (طلعت حرب)، وقتئذ كان من شوارع وسط المدينة الأنيقة، كان رصيفا جميلا لتأمل المارة خاصة الحسانات منهن واللواتي يبطنن من حركتهن عند المرور امام المقهي ليتحن أطول فرصة ممكنة للجالسين كي يتأملوا ويتمعنوا، تواطؤ خفي، الموازي له في الاحياء الشعبية خروج الفتيات ما بين العصر والمغرب ليسرن متمهلات، متأودات امام المقاهي، لعل ابن الحلال يكون عنده نظر.

اختار نجيب محفوظ مكانا في منتصف رصيف المقهي، لا يطل مباشرة علي الطريق، خلفه تماما قطعه مستطيلة من الرخام الابيض مازال صاحب المقهي يحتفظ بها، ويعتبرها من معالمه، إذ أنها تشير إلي مكان جلوس محفوظ المختار، وعلاقة محفوظ بالمكان مثل علاقته بالزمان، يدخل يوميا في السادسة وينصرف في الثامنة والنصف، ساعته الداخلية لاتخطيء ابدا حتي الآن،

أما المكان فلا يغيره ولا يبدله، حوله يتخلق الأدباء، في الستينات كانت المناقشات جادة، وتدفع بالبعض أحيانا إلي دائرة الخطر، لم يكن الأدباء والمثقفون بمفردهم، كان هناك العسس أيضا فوق الرصيف، وهم من نوعين، عسس تم تجنيدهم من المثقفين أنفسهم، أو عسس محترفون أحيانا لم يكونوا يبذلون أي جهد لاختفاء انفسهم حتي اذا زاد الأمر عن الحد تتدخل الدولة وتلغي الرصيف، حدث هذا في السبعينات عند تدخل الأمن واضطرت إدارة المقهي إلي اغلاقه يوم الجمعة باعتباره إجازة.

الرصيف ليس للتأمل فقط، لكنه فرصة للقاء، للاجتماع، واللقاء يعني الحوار، والحوارات فيها ما فيها .

يقول جمال الغيطاني : " أستطيع الآن أن أفهم تلك الحملة التي شنتها وسائل الاعلام ضد المقاهي في الستينات واعتبرتها مضيعة للوقت، مبطلة للانتاج، وهنا برزت عبقرية المصريين في المقاومة بالحيلة، فوضع أصحاب المقاهي دواليب للكتب عرضوا فيها كتباً من أي نوع، خاصة كتب هيئة الاستعلامات باعتبار المقاهي مراكز ثقافية.

ودائما كان نجيب محفوظ يجلس إما وحيدا في الصباح يقرأ الصحف ويشرب فنجان ألقهوة، أو محاطا بالمريدين . تعددت الأرصفة والرصيف واحد، من رصيف ريش، إلي رصيف مقهي جميل كان مواجهها لسينما راديو ثم اختفي المقهي وتحول إلي محل أحذية إلي رصيف مقهي عرابي الذي كان ملتقي اصدقاء الطفولة،

وجه التطرف طعنة إلي عنق نجيب محفوظ محاولا اغتياله، ومنذ ذلك الحين، بطل عادة المشي فوق الرصيف المحاذي للنهر صباحا، والجلوس إلي أرصفة المقاهي، حتي الرصيف المحاذي للبحر والذي اعتاد المشي في الصيف الباكر فوقه أو التطلع إلي البحر فقد أصبح من ذكريات الماضي.

ويمكن المقارنة مثلا بين حضور المقهى عند نجيب محفوظ أو عند غيره من الروائيين المصريين وروائي مثل عبد الرحمن مجيد الربيعي الروائي العراقي المعروف ، فعلى الرغم من أن حضور المقهى لدى الربيعي ليس حضورا مجانيا ، ويحتاج إلى دراسة منفصلة في سياقه ، فإن المقهى المحفوظي تتسع دلالاته ، وتتشابك العلاقات الدلالية فيه لدرجة يمكن من خلالها أن نقرأ تاريخ القاهرة عبر المقهى المحفوظي ، فما بين زقاق المدق ١٩٤٧ ، وقشتمر ١٩٨٨ تتشكل عناصر يمكن الاتكاء عليها في قراءة تاريخ القاهرة في اختزالها لمصر ، ويمكن معاينة أحداث كبرى ووقائع لها أهميتها في التاريخ العربي .

ويمكن بداية طرح واحدة من الملامح الأولية الكاشفة للفارق بين مقهى محفوظ بوصفه النموذج الأمثل للرواية المصرية ، خصوصية المقهى المحفوظي ليكون بمثابة الشخصية الروائية واضحة المعالم والأبعاد ، وليس أدل على ذلك أن محفوظ لم يترك مقهاه دونما علامة فارقة أولية ، نعني الاسم الذي يشكله محفوظ حسب ثلاث طرائق :

١. مقهى له اسمه الخاص دونما إحالة لما هو خارجه ، فيبدو المقهى متفردا باسمه ، ويكون على الباحث عن مرجعية الاسم أن يبحث في تاريخ المقهى نفسه (كما نجد في : الكرنك ، وقشتمر) .

٢. مقهى ينتمي لصاحبه أو مؤسسه ، أو لشخصية عامة ، يكون تاريخه موازيا لتاريخه ، ولكنه يمثل تاريخا ممتدا يتجاوز تاريخ من ينتمي إليه ، حيث يصبح المقهى مكانا يختزل تواريخ من يلتصقون به إلى حين ، فسرعان ما يتجاوز المقهى دلالاته الأضيق في علاقته بالأشخاص ، متجاوزا ذلك إلى الدلالة الأوسع بالتصاقه بالتاريخ المتعين للوطن ، والإنسانية مما يدخله في دائرة الآثار التاريخية للإنسان ، يستهل محفوظ زقاق المدق ، مقدما قهوة المعلم كرشة : " تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري . أي القاهرة أعني ؟ .. الفاطمية ؟ .. المماليك ؟ السلاطين ؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس ، كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصناديق ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة

بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاوليل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ،
وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع
كرو الزمن عطارة اليوم والغد!"^(١).

كما يؤكد مقهى الزهاوي المنحى نفسه : " في هذا المقهى الذي
يحمل اسم أحد الشعراء العراقيين الرواد حيث كان يؤمه مع مريديه وحفظة
شعره وهو الشاعر "الزهاوي" الذي بات ذكرى في ذاكرة الجيل" ^(٢).

ويعتمد حنا مينا الآلية نفسها في "المصاييح الزرق" ، حيث مقهى
الشاروخ دالا على صاحبه ، محيلا إليه^(٣).

٣. مقهى يكتسب اسمه بانتمائه لشيء يشير لمعنى من المعاني
الاجابة، كما في قهوة الزهرة في رواية "خان الخليلى" ذلك المقهى
الذي يمنحه محفوظ خصوصية واضحة ، إذ كان بإمكانه وقد أشار
إلى الكثير من المقاهي التي يضمها الحي ، أن يذكر أسماءها أو
بعضها ولكنه يشير إلى تعددها دون تحديد : " وقد وجد في الحي
من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحي بمعدل قهوة
لكل عشرة من السكان " ^(٤) ، ويأتي "مقهى البرلمان" مؤكدا لهذا
الجانب .

^(١) نجيب محفوظ : زقاق المدق ، مكتبة مصر ، 1977 ، ص 5

^(٢) عبد الرحمن مجيد الربيعي : الوكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ط 1 . 1994 ص 24

^(٣) حنا مينة : المصاييح الزرق . الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة 2002 .

^(٤) نجيب محفوظ . خان الخليلى . مكتبة مصر . ص 47 .

يبنى نجيب محفوظ شخصية دالة للمقهى بوصفه مكانا يساهم إلى حد كبير في خلق خصوصية التاريخ المصري ، وما يضمنه من أحداث كبرى كان المقهى قادرا على أن يحمل عبء الدلالة عليها ، ورغم المساحات التي يشغلها المقهى في الرواية العربية فإن مساحات وصفها والتعريف بها بوصفها الشخصية الروائية قليلة ، حيث يبدو المقهى خاصا بالنص وليس له علاقة بالواقع أو بما يمكن أن يسمى بالمرجعية الواقعية أو المرجعية التاريخية .

ففي الوقت الذي تعاملت فيه الرواية العربية خارج مصر مع المقهى بوصفه مكانا معروفا تنطبق سماته على مقهى يعرفه المتلقي وهي طريقة تنتهجها كثير من الروايات العربية في تقديم مقاهيها كما نجد في "المصاييح الزرق" لحنا مينة ، وعلى الرغم من الدور الذي يلعبه المقهى عند عبد الرحمن مجيد الربيعي في روايته "الأنهار" و "الوكر" ، فإن المقهى موصوف بأقل درجات الوصف المكاني كما أنه ليس محدد الاسم أحيانا ، وليس ممنوحا خصوصية تميزه عن غيره من المقاهي : "استقبله رفاق المقهى بالترحاب ، كان المقهى صغيرا يحتل ركنا يطل على شارع الرشيد من جهة وعلى الشارع الصغير المؤدي إلى ساحة القشلة من جهة أخرى ، حيث الدوائر الرسمية العديدة والوزارات التي تحتل الأبنية القديمة المشيدة منذ سنوات طويلة" (١) .

ففي مقابل هذه الصفات المكثفة المهمة بإبراز موقع المقهى وعلاقته بما يجاوره من أمكنة دالة في انتقائها . وهو إذ يبرز هذه الأمكنة

بأسمائها وصفاتها الكبيرة فإنه يجعل المقهى ركنا نكرة بين مجموعة من المعارف ، ولا يهتم - في دلالة واضحة - بإظهار سمة مميزة للمقهى ، في مقابل ذلك يأتي وصف المقهى المحفوظي محتلا مساحة كبرى في الرواية المصرية على اختلاف كتابها .

يهتم محفوظ كثيرا بإبراز مقهاه والسمات المميزة له ، يتكشف ذلك عبر مقهى كرشة في "زقاق المدق" ، بداية يحدد اسمه ، ويمنحه الكثير من الصفات المميزة : "مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية عشت الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار ، هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها ، وعند مداخلها كان يكب عامل على تركيب مذيع نصف عمر بجدارها ، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخلون الجوز ويشربون الشاي" ^(١) .

إن المساحة التي منحها محفوظ لمقهاه تجعله يقف منفردا بتقديم مقهى من نوع خاص ، يجعلنا نراه نموذجا غير متكرر فعلى الرغم من المساحة الوصفية الواسعة للمقهى في الرواية بعد نجيب محفوظ ، ومنح بعضهم مساحات واسعة لمقاهيهم .

يبقى لنجيب محفوظ خاصية الحفاظ على قانونه الفني الخاص والمتميز في رسم ملامح "قهوته" ، ذلك القانون الكاشف عن الطرائق التي استنتها محفوظ في إبداع "قهوته" ، ومن أهمها :

^(١) زقاق المدق ص 7

القهوة والمقهى :

يستخدم اللفظين "قهوة ومقهى" ولكنه لا يمزج بينهما في عمل واحد ، وقد كان لاستخدامه اللفظين بعده التاريخي : في أعماله الأولى قبل الكرنك تقريبا يستخدم "قهوة" والأعمال الأخيرة يستخدم "مقهى" وهي نقطة تحتاج إلى وقفة مدققة ، تثير انتباه الباحث طارحة تساؤلاتها القيمة^(١) .

إنسانية المقهى :

للمقهى عند محفوظ شخصية لها ما للشخصية الإنسانية من أبعاد (جسمانية - اجتماعية - نفسية) جعل المقهى عنصراً له فاعليته منفصلاً عن الأمكنة الأخرى ومتصلاً به وبالأذين ينضافون إليها وتنضاف إليهم من البشر .

في "زقاق المدق" يظهر البعد الحسي للقهوة ممثلاً فيما يسبغه محفوظ من صفات حسية تحدد معالم المكان (مربعة - مزينة جدرانها - ازدحامها بالأفراد الكاشف عن اتساع مساحتها) .

كما يتجلى البعد الاجتماعي للقهوة في علاقتها بالزقاق وعلاقة الزقاق بالأمكنة المناظرة له ، تلك العلاقة التي تكشف عن موقع الزقاق ، ومن ثم القهوة جغرافياً بالنسبة للمساحة التي تضم هذه الأمكنة مما يجعل

^(١) قد يعزى الأمر إلى قضية اللغة التي عانى منها نجيب محفوظ في حديثه عن الثلاثية وظروف ابداعها . انظر جمال الغيطاني . نجيب محفوظ يتذكر . أخبار اليوم 1987 .

منهما (الزقاق والقهوة) مكانا له ملامحه الجغرافية التي تكون بمثابة الجسم الإنساني المميز لصاحبه عن غيره من بني جنسه .

ويعتمد محفوظ إلى إبراز البعد الاجتماعي من خلال الثقافة التي يطرح المكان تفاصيلها من خلال جدران المقهى والتاريخ المنظم في تفاصيله ، وعلى الرغم من العزلة التي يعيشها المكان فإنه يعيش شخصيته الخاصة التي تجعل له محيطه الاجتماعي : "ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عما يحدث به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضح بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحفظ - إلى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوي" ^(١) .

لقد جعل محفوظ للزقاق والمقهى شخصية واحدة ، ما يتصل بأحدهما يتصل بالآخر .

إنسان المقهى :

فى كل مقهى محفوظي هناك شخصيات إنسانية لصيقة الصلة بالمقهى ، تكاد تمثل عنصرا جغرافيا ، كما يشكل كل منهما علامة على الآخر لا ترى المقهى بدون هذه الشخصيات ، ولا تتعرف على هذه الشخصيات بعيدا عن المقهى ، مما يجعل وجود كل منهما مرتبطا بوجود الآخر ، وعلى الرغم من كم البشر المتعاملين مع المقهى تظل هذه الشخصيات أساسا من أسس الصورة المحفوظية للمقهى ، ونجيب محفوظ لا يفصل المكان (المقهى) بوصفه (الثابت) منعزلاً عن أشخاصه بوصفهم

^(١) زقاق المدق ص 5 .

(المتحرك) ، إذ يصبح المكان والرواد كالمنزل الخاص وصاحبه ، يبقى المنزل ويتحرك الإنسان ليعود مهما امتدت مساحة حركته ، كما أنه صورة تكشف عن صاحبها في غيابه .

لقد جعل محفوظ من قهوة كرشة وجهها آخر للحياة في الزقاق ، امتدادا لها ، فعندما يصمت الزقاق وتنطفئ أنواره تبدأ حياة القهوة أو تستمر الحياة فيها ، وفي إشارات وصفية دالة يقدم الراوي مكانه : "آذنت الشمس بالمغيب ، والتفت زقاق المدق في غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصناديقية ...

- سكنت حياة النهار وسرى دبيب حياة المساء
- كاد المدق يغرق في الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية ...
- ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة ، ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيت تنطفئ واحدا في إثر واحد^(١) .

هنا يتأكد دور قهوة كرشة بوصفها الوجه الآخر لحياة الزقاق ، هي ليل الزقاق أو القلب الذي يحافظ على الحياة ، لا ينام بنوم صاحبه ، وجه

^(١) زقاق المدق ص 15 □ 7 □ 5

ذو حضور مسرحي ، عندما تنطفئ أنوار القاعة تدريجياً تبدأ الحياة على المسرح بأنواره التي لا تكشف مساحة من القاعة أيضاً .

إنها الأنوار التي تنسحب على وجه المشاهدين مباشرة أو تكشف عن دواخلهم بصورة غير مباشرة من خلال الحركة على المسرح ، من حيث هي استبطان للنفس الإنسانية وتجسيد لما يدور فيها ، ولا يقدم نجيب محفوظ أشخاصه للقارئ خارجها وإنما يتعرف المتلقي عليهم تحت أنوار القهوة التي ينجذبون إليها ، لذا فإنه ليس من الغريبة أن يكون من هم خارج المكان في حالة أشبه ما تكون بغياب الوعي أو العزوف عن العالم ، والمكانان اللذان تظل حياتهما راكدة إلى موعد بداية حياة قهوة كرشة لا يستطيعان الصمود أمام سطوة القهوة (دكان عم كامل ، وصالون الحلو) : ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيًا على عتبة دكانه - أو حقه على الأصح - يغط في نومه والمذبة في حجرة لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق ، هو كتلة بشرية جسيمة....".

ولا يختلف الوجود الإنساني لصاحب المكان الثاني (عباس الحلو) عن صاحبه من حيث الصفات التي تخرجه عن زمرة جماعة قهوة كرشة (وفوتنا دوره اللاأخلاقي مع حميدة مع نمو الأحداث) .

تكتسب قهوة كرشة بعدها النفسي من مجابتهها العزلة أولاً ، والتركيب النفسي لأشخاصها غير المنفصلين عنها ثانياً ، ثم من الطاقة النفسية الكامنة في تفاصيل القهوة وأشخاصها ، إنها البعد الذي يتكشف عبر الوقوف عند زاوية الواصف والصفة والموصوف في سياق القهوة

وما يضمه من أشخاص وتفاصيل ^(١) يمكننا رصدها عبر الوقوف عند علاقة الأشخاص بالمقهى .

تلك العلاقة التي أسسها نجيب محفوظ وراحت تتشكل في الرواية المصرية أولا والعربية ثانيا ، عبر أشكال ثلاثة دائمة : تلك العلاقة التي يكون فيها الأشخاص لصيقي الصلة بالمقهى لدرجة لا يمكن الفصل فيها بين الإنسان والمقهى ، ويبدو الإنسان ابنا للمكان ، ومن صنعه ، نتعرف فيها هوية الإنسان عبر هوية المقهى ولا يكون له هوية خارجه ، وهي العلاقة الأكثر ظهورا في أعمال نجيب محفوظ : في خان الخليلي يتعرف أحمد عاكف على عالم الحي عبر المقهى بوصفه بوابة للولوج للحياة :

" ومضى يسلم عليهم واحداً فواحداً والمعلم يقدمهم قائلاً : سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الأولى ، سيد أفندي عارف بالمساحة ، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضا ، الأستاذ أحمد راشد المحامي ، المعلم عباس شفة من الأعيان" ^(٢) وفي "زقاق المدق" تتسع دائرة الشخصيات المنضوية تحت هذه العلاقة لتشمل الزقاق بكامل أفرادهِ ، وفئاتهِ ، وطبقاتهِ ، ويعد " كرشة" أول ملامح المقهى ، وعلامة مكانية دالة :

" على كُتب من المدخل تربع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدي جلبابا ذا بنفقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة! ، وقد خلع قباقبه على الأرض عند

^(١) الواسف والموصوف والصفة . مفهوم خاص تضمه دراسة بهذا العنوان تهتم بالوقوف عند النسيج اللغوي وإيحاءاته ودلالاته من خلال دراسة زاوية الواسف (الرأى) والموصوف (المرئى) والموصوف له (المرئى له) والصفة معناها النحوى والسردى . أنظر مصطفى الضبع . الواسف والموصوف . دراسة غير منشورة .

^(٢) نجيب محفوظ . خان الخليلي . ص 48

موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات لا يتلفت يمنة ولا يسرة ، كأنه في دنيا وحده" ^(١) ، والعلاقة ذاتها تتشكل في "الكرنك" ، و"قشتمر" .

وفي هذا الجانب يصبح المقهى مكانا صالحا للعمل المهني (والسياسي كما سنرى لاحقا) "يزداد عدد رواده في مثل هذه الساعة ، وأغلبهم من الموظفين المتقاعدين أو بعض الصحفيين الذين يهيئون موادهم الصحفية قبل أن يسلموها إلى صحفيهم لغرض نشرها" ^(٢) .

- علاقة تتأرجح بين المؤقتة ، والدائمة : وهي العلاقة التي تبدو عبر الشخصيات التي تتحرك بين فضاءين : البيت أو العمل والمقهى بصورة غير منتظمة ، أو علاقتها بالمقهى تستمر فترة مؤقتة ، وتتضح هذه العلاقة عبر علاقة أصحاب المحال والحرفيين بالمقهى بوصفه المكان الأقرب لعملهم والذي يمثل المقهى لهم وسيلة ترفيه واستكمال مجال العمل ، كما يمثل معظم رواد المقهى شكلا من أشكال هذه العلاقة اعتمادا على أن المقهى يمثل لهم حلقة اجتماعية تنضاف لحلقتي العمل والبيت ، وتكون علاقتهم بالمكان منتظمة في أوقات محددة لا تملأ مساحتها المساحة الزمنية لحياتهم .

" وفي المقهى يمكث طويلا ، وعندما تشير ساعته إلى الواحدة ينهض ويودع أصحابه ليعود إلى البيت ويتناول غداءه ثم ينام قرابة

^(١) زقاق المدق ص 7

^(٢) الوكر ص 134

الساعتين يصحو بعدهما ويعود ثانية إلى المقهى ، ويمكث فيه حتى الساعة ، آنذاك يعود إلى البيت ليتناول عشاءه ويكمل سهرته مع التلفزيون " (١) .

لقد أصبحت العلاقة قائمة بين الطرفين على أساس توازن بين البيت والمقهى ، حيث يكون بإمكان الشخصيات أن تحدد طبيعة العلاقة وفق طبيعتها ، والمساحة المتاحة من وقتها ، ورغم إنه يمكث طويلا في المقهى ولكن عند حدود زمنية تتحدد حسب ظروفه هو تنتهي العلاقة ، فإذا ما توقفنا عند الضمير في (ساعته) أمكننا إدراك مدى تحكم الإنسان في إحداث هذا التوازن (٢) .

- علاقة مؤقتة : وفيها تكون العلاقة بالمكان وقتية كما نجد في الحملة الانتخابية للسيد إبراهيم فرحات في "زقاق المدق" الذي يعد غريبا على المكان ، يدخله لقضاء حاجة لا تشكل علاقة لها صيغة الدوام ، وليس بإمكاننا أن نراه ابنا للمكان ، وإنما هو شخصية طارئة على المقهى بوصفه مكان عبور بين فاصلتين زمنيتين ، أو مكاني انتقال ، أو مكان إقامة مؤقتة يجعل من المقهى مرتعا للمتمردين والعاطلين والمضادين للنظام . وهي صورة يلح عليها الربيعي في روايته "الأنهار" و "الوكر" :

"هذه المقهى ملتقى الغرباء والمنفيين في بيروت ، كلما حدث انقلاب في بلد عربي يصبح له زبائن جدد" (١) .

(١) الوكر ص 144

(٢) وهو ما كان سيمنحننا دلالة مغايرة إذا ما عاد الضمير في حالته إلى المقهى مثلاً .

(١) عبد الرحمن محمد الربيعي . الأنهار ، دار الأقواس للنشر ، ط ٤ ، 1991 ، ص 14

وفي "الوكر" : "بدأ الرواد بالتجمع ، موظفون صغار ، طلبة ، متقاعدون ، عاطلون عن العمل ، وأغلبهم يمتلكون صحائف أعمال لدى الشرطة تشير إلى انتمائهم للأحزاب السرية المعروفة في البلد ، وهذا ما يجعل منهم عرضة للاعتقال والتفتيش بين فترة وأخرى ويجد المخبرون السريون مادة دسمة لهم" (٢) .

ويرسم حنا مينة صورة شديدة الثراء - دلاليا - على المكان الذي يضم مقهى الشاروخ ، بحيث يكشف المقهى عن الطبقة الاجتماعية الكائنة في الحي عبر العلاقة بالمقهى بوصفه مكانا للإقامة المؤقتة :

"أما المقهى فقد كان في حقيقته مقمرة وخمارة ، وكان المقامرون فيه هم الشاربون ذاتهم ، فإذا ربح أحدهم ابتاع كأسا رخيصة من عرق التين ذي الرائحة الكحولية الحادة فجرعه دفعة واحدة وعاد إلى اللعب . وفي أنصاف الليالي ، حيث لا يبقى لعب ولا عمل ، يتجمع بعض المدمنين حول الشاروخ ، فيشربون ويكحون ويغنون" (٣) .

(٢) الوكر ص 22

(٣) المصباح الزرق ص 42